السّماوات ورفعها بغير عمدٍ نراها، وألقى في الأرض جبالاً راسيات لئلاّ تتحرّك بنا وتضطرب، ونشر فيها من كلّ دابّة تدبّ عليها، وأنزل من السّماء ماءً فأنبت فيها من كلّ صنفٍ حسن، ونوعٍ جميل.

كلّ هذا خلق الله تعالى وحده لاشريك له فهو المستحقّ أن يعبد وحده دون سواه. وأنتم أيّها الضّالّون المضلّون أروني ماذا خلق الّذين تعبدونهم من دون الله تعالى. إنّ هذه الآلهة الزّائفة لم تخلق شيئاً ولن تخلق ذباباً ولو اجتمعت له، وإنّ الظّالمين يعلمون ذلك، ولكنّهم في ضلالٍ بيّن، وخروجٍ عن الصّراط المستقيم واضح، وذلك بإشراكهم مع الله تعالى في العبادة سواه.

(٢)
(لقمان الحكيم يعظ ابنه)
الآيات (١٢-١٩)

يتحوّل السّياق إلى الحديث عن لقمان الحكيم الّذي يعظ ابنه، آمراً أيّاه ابتداءً بالشّكر لله تعالى، ويتجلّى الشّكر في أبهى حلله في توحيد الله تعالى، وينهاه عن الشّرك. والآيتان الكريمتان اللّتان تعترضان مواعظ لقمان تأمر أولاهما بالشّكر لله تعالى، أي بتوحيد الله تعالى، وتنهى أخراهما عن الشّرك. ونستطيع أن نذهب إلى أنّ الآيات الكريمات الّتي تتحدّث في السّورة الكريمة عن لقمان الحكيم بأنّها من آيات الحكمة في القرآن الكريم. وآيات الحكمة مجموعات من الآيات الكريمات غير قابلةٍ للنّسخ في كلّ الشّرائع السّماويّة ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمد صلّى الله عليه وسلّم[1] وأهمّ القضايا الّتي تُعْنى بها آيات الحكمة توحيد الله تعالى.

---

(١) انظر هنا ـ مثلاً ـ الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيميه ١/٣-٥ مطبعة المدني القاهرة بدون تاريخ.

يقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة والجلال آتى لقمان الحكمة فضلاً منه تعالى ونعمة، وأمره بأن يشكر لله تعالى نعمه العظيمة عليه، وفي مقدمة النّعم الاهتداء لدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، وفي مقدّمة مظاهر الشّكر توحيد الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة. إنّ من يشكر فإنما يشكر لنفسه لأنّ الثواب عائدٌ إليه، وإنّ من يكفر فإنّما كفره على نفسه، لأنّ العقاب واقعٌ عليه. والله سبحانه تعالى هو الغنيّ عن الخلق، المحمود على كلّ حال، ومن أوليائه.

واذكر يا محمّد إذ قال لقمان الحكيم الرّجل الصّالح لابنه وهو يعظه وينديه في تصغير الإشفاق قائلاً: ﴿يابُنَيّ﴾ ناهياً إيّاه عن الشّرك، إنّ الشّرك بالله تعالى لظلمٌ عظيم، وإثمٌ كبير.

ثمّ تأتي الآيتان الكريمتان المعترضتان على لسان الحقّ جلّ وعلا. لقد وصّى الله تعالى جنس الإنسان بوالديه وأمره ببرّهما وبالإحسان إليهما إحسانا، وبخاصّة الوالدة، الّتي حملت المولود وهناً على وهنٍ وضعفاً على ضعف، فهناك جهد الحمل والطّلق والولادة، وهناك جهد الإرضاع والتّربية حتّى وقت الفطام في عامين اثنين وهكذا. لقد قال الحقّ جلّ وعلا لجنس الإنسان، وليس للمؤمن وحده، اشكر لي بتوحيدي وإفرادى بالعبادة، ولوالديك ببرّهما والإحسان اليهما، إليّ المصير والرّجوع يوم القيامة.

وإن جاهدك والداك أيّها المؤمن وخاصماك على أن تشرك بي ماتعلم أنّه ليس شريكاً لي، وليس لله تعالى شريك، فلا تطعهما مطلقا، وصاحبهما في الدّنيا بالمعروف بالكلمة الطّيبة، والمعاملة الحسنة، واتّبع سبيل من أناب إليّ ورجع من المؤمنين بالطّاعة. ثمّ إليّ مرجعكم يوم القيامة فأنبّئكم بما كنتم تعملون فأجازيكم. وهكذا تأتي قضيّة برّ الوالدين في الإسلام بعد قضيّة التّوحيد. وإنّ الحقّ جلّ وعلا هو الّذي يأمر ببرّ الوالدين هنا وليس لقمان الحكيم الّذي يعظ ابنه. وكأنّ لقمان الحكيم بعد أن أمر ابنه بتوحيد الله تعالى ونهاه عن الشّرك أمره ببرّ الوالدين. وعلى الرّغم من المقام الرّفيع للوالدين والأسمى في الإسلام فإنّ مقام العبوديّة منفصلٌ تماماً عن مقام الألوهيّة. إنّ كلّ الحقوق تسقط حينما تصطدم مع قضيّة التّوحيد.

ويعود السياق إلى مواصلة الحديث في مواعظ لقمان الحكيم. إنّه يخاطب ابنه للمرّة الثّانية بالقول: ﴿يابني﴾ ويخبره بأنّ الخصلة السيّئة إن كانت في الصِّغَر زِنةِ حبّةٍ من خردلٍ فإنّ الله تعالى اللّطيف باستخراجها، الخبير بموضعها يأتي بها ويجازى عليها. فكيف إذا كانت الخصلة السّيّئة ـ لا سمح الله تعالى ـ شركاً. إنّ الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك من الخصال السّيّئة لمن يشاء.

ويخاطب لقمان الحكيم ابنه للمرّة الثّالثة بالقول: ﴿يابُني﴾ ويأمره بأن يقيم الصّلاة عماد العبادات البدنيّة، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يصبر على ما أصابه في جنب الله تعالى، إنّ ذلك من الأمور الّتي ينبغي على المرء أن يعزم عليها بقلبه، ويجتهد في سبيل تحقيقها في دنيا الواقع. والمعروف أن خيريّة أمّة محمد صلّى الله عليه وسلّم مشروطةٌ بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى.

وينهى لقمان الحكيم ابنه عن الكِبْر بأن يُعْرِضَ بوجهه عن النّاس حينما يكلّمهم احتقاراً لهم، وبأن يمشي في الأرض اختيالاً بباعث الفرح الشديد. ويلاحظ مجيء حرف الجرّ: «في» في القول ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ تنبيهاً إلى أنّ المتكبّر المختال الفرح يمشي في الأرض لذات المشي دون غايةٍ سامية أو هدفٍ نبيل. كما ينهى لقمان ابنه عن الفخر بلسانه على النّاس والمباهاة بالأشياء الخارجة عنه والّتي لا فضل له فيها، كالمال والجاه، فإنّ الفضل لله تعالى وحده أوّلاً وأخيرا.

ويأمر لقمان الحكيم ابنه بأن يقصد في مشيه ويتوسّط ويعتدل وبأن يمشي على الأرض هَوْنا، وبأن يغضّ من صوته حينما يتكلّم، فإنّ رفع الصّوت في اثناء الكلام دون سبب موجب منكرٌ وقبيح. ولمّا كان الحمار يضرب به المثل في قبيح الصّوت ومنكره فإنّ مواعظ لقمان الحكيم تختم بتقرير هذه الحقيقة. إنّ أنكر الأصوات قاطبةً وأقبحها على الإطلاق لصوت الحمير.

(٣)
(ثواب الشّكورين لله تعالى نعمه المحسنين، وعقاب الكفورين النّعم الكافرين)
الآيات (٢٠-٢٤)

في سبيل حثّ السّورة الكريمة النّاس على توحيد الله تعالى والانتهاء عن الشّرك يسأل السّياق النّاس: ألم تروا أن الله سبحانه وتعالى سخّر لكم ما في السّماوات وما في الإرض من نعم، وأوسع وأتمّ عليكم بطريق مباشر نعمه ظاهرةً للبَصَر، وباطنةً ظاهرةً للبصيرة. وعلى الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنات والنّعم السّابغات، هناك من النّاس من يخاصم في توحيد الله تعالى ويجادل في دينه عزّ وجلّ بغير علمٍ صحيح، ولا هدًى من رسول، ولا كتابٍ منيرٍ موحىً به من ربّ العالمين. وإذا قيل لهؤلاء المشركين المستكبرين اتّبعوا ما أنزل الله تعالى على رسوله الكريم من قرآنٍ كريم وسنّةٍ مطهرةٍ قالوا: لا نتّبع محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وما أوحى الله تعالى إليه بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادةٍ للأصنام والأوثان. أيتّبعونهم ولو كان الشيطان الرّجيم يدعوهم إلى الدّخول في نارٍ جهنم!

. إنّ من يسلم وجهه إلى الله تعالى، وهو محسنٌ عمله، ويخضع لأمره، ويتّبع شريعته، ويوحّد الله تعالى ويفرده بالعبادة، فقد تمسّك بالطّرف الأوثق الّذي لا انقطاع له حتّى يدخل بإذن الله تعالى جنّات النعيم. وإلى الله تعالى عاقبة الأمور ومصير كلّ حيٍّ وشيء. ومن كَفَرَ فلا يحزنك أيّها الرّسول الكريم والنبيّ العظيم كفره. إلينا مرجعهم يوم القيامة فننبّئهم بما عملوا. إنّ الله تعالى عليمٌ بذخائل الصدور وخبايا النفوس. نمتّعهم في هذه الدّنيا قليلاً ثمّ نلجؤهم ونردّهم يوم القيامة إلى عذاب شديد. وهكذا يتّبع المؤمنون القرآن الكريم الّذي أنزله الله تعالى على محمّد صلّى الله عليه وسلّم والّذي تبيّنه السّنّة النّبوية المطهّرة، في حين يعرض الكافرون عمّا أنزل الله تعالى. وبذلك يكون في السّورة الكريمة عودةٌ إلى

الحديث عن القرآن الكريم، وهي الّتي انتصرت للقرآن الكريم في أوّلها عقب الحروف المقطّعة الّتي ابتدأت بها: ﴿الم﴾ كما أنّنا بصدد تسليةٍ مباشرةٍ للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم.

(٤)

(على المشركين المقرّين بتوحيد الرّبوبيّة أن يقرّوا بتوحيد الألوهيّة ويعبدوا الله تعالى العليّ الكبير العليم الخبير وحده)

الآيات (٢٥-٣٤)

كفّار مكة ومن شاكلهم يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة ولا يقرّون بتوحيد الألوهيّة ولا يفردون الله تعالى بالعبادة إلاّ ساعة الخطر ومشاهدة الموت، كأن يعلوهم الموج في البحر كالجبال وكالسّحاب، على نحوما قرّرت السّورة الكريمة. إنّ على هؤلاء النّاس أن يقرّوا بتوحيد الألوهيّة دائماً. وليس ساعة الشّدّة فقط. يقول السّياق: إنّك يا محمّد ويا أيّها الإنسان لئن سألت هؤلاء المشركين: من خلق السماوات والأرض ومن فيهنّ ومافيهنّ ليقولُنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيء. قل أيّها السّائل: الحمد لله تعالى الّذي أجرى الحقّ على ألسنتكم. بل أكثرهم لا يعلمون مايجب عليهم من إفرادٍ لله تعالى بالعبادة. والله تعالى هو المالك لهذا الكون، فلله تعالى ما في السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً. وهو عزّ وجلّ الغنيّ عن خلقه المحمود من أوليائه. والله تعالى هو العليم الّذي أحاط بكلّ شيءٍ علماً. فلو أنّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلام، والبحر مداد تلك الأقلام، ويمدّ ذلك البحر سبعة أبحر، لتكسّرت الاقلام، ونفدت كلّ البحار، وما نفدت كلمات الله تعالى العزيز في ملكه الحكيم في صنعه وتدبير خلقه. ولماذا ينكر المشركون البعث وهم

يعلمـون أنّ الله هو الّذي خلقهـم وخلق الكون كلّه. ماخلـقكم ولا بعثكم أيّهـا النّاس إلا كخلق نفسٍ واحدة وبعثها. إنّ الله تعـالى سميعٌ لما يقول الكافرون بصيرٌ بأعمالهم وسيجازيهم. ومن مظاهر قـدرة الله تعالى الّتي ينبغي أن يستدلّ بها على القدرة على البـعث إدخال الله تعالى اللّيل في النّهـار فيطول النّهار على حـساب اللّيل صيفا، وإدخال النهار في الليل فيطول اللّيل على حساب النّهار شتاءً وتسخير الشّمس والقمر يجريان إلى أجل مسمّى ويقومان بالدّور المنوط بهما. إن الله تعالى الخبير بكلّ ذلك خـبيرٌ بما نعمل. ذلك المذكور إنّما فـعله الله تعالى بسبب أنّه هو الحقّ وأنّه هو وحده المعبود بحقّ، وأنّه هو العليّ الكبـير، أمّا ما يُعْبَد من دون الله تعالى فآلهة زائفة. وتتجلّى نعم الله تعـالى في البحر أيضاً. ألم تر أيّها الإنسان أنّ السّفن تجـري في البحر بنعمـة الله تعالى وفضله ليـرينا من آياته عزّ وجل. إنّ في ذلك لآيات لكلّ من كابد الصّبر على الحقّ وكان شكوراً لمولاه عزّ وجلّ. وإذا علا المشركين موجٌ كالسّـحب أو الجبال أخلصوا العبادة لله تعالـى، فلما نجّاهم إلى البرّ فمنهم مذبذبٌ بين الإيمان والكفر، ومنهم الكافر الجـاحد لنعمنا عليه الشّديد الغدر والكفران. لقد كـان المنتظر من القوم أن يبادلوا النّعمـة بالشّكران بإفراد الله تعالى بالعبادة.

وتنادى السّورة الكريمة النّاس أجمعين وتأمرهم بأن يتقوا الله تعالى وإن يخشوا يوم القيامة الّذي لا يغنى فيه والدٌ عن ولده ولا مولودٌ عن والده شيئا. إنّ وعد الله تعالى حقٌّ بالبعث والحساب والجزاء، فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا بزخرفها ولا يغرّنكم بالله تعالى في حلمه وإمهـاله الشّيطانُ الرّجيم. إنّ مفاتيح الغيب الخـمسة بيد الله تعالى العليـم الخبير وحـده لا شريك له، وأوّل مفـاتيح الغيب العلم بوقت قـيام السّاعة. وبذلك يكون الحثّ على الإيمـان بيوم القيامة من أهمّ موضـوعات السّورة المكيّة الكريمة وأهدافها.

التّفسير

(١)

(المحسنون يتّبعون القرآن الحكيم، والضّالّون يولّون عنه مستكبرين، والله تعالى خالق كلّ شيء، والآلهة الزّائفة لا تخلق شيئا)

الآيات (١-١١)

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ
لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾

بين هذه الآيات الكريمات الخمس الأُوَل من سورة لقمان وبين الآيات الكريمات الخمس الأُوَل من سورة البقرة بعض أوجه الشّبه. إنّ الآيتين الأولى والخامسة متماثلتان تماماً، وتتفاوت وراء ذلك أوجه الشّبه.

تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطعة: ﴿الم﴾ الّتي ابتدأت بها سورة البقرة كما تبيّن من قبل وسورة الرّوم السّابقة. وماقيل عن هذه الحروف المقطعة هنالك وفي المواضع المشابهة يقال هنا. إنّ من العلماء من قال بشأن الحروف المقطعة: الله أعلم بذلك. وإنّ من العلماء من ذهب إلى أنّ هذه الحروف امتدادٌ للتّحدّي بالقرآن الكريم. إنّ هذه الحروف يتألّف منها كلٌّ من القرآن الكريم وكلام العرب، ولكنّ القرآن الكريم نسيجُ وَحْده.

وسورة لقمان المكّيّة الكريمة[1] الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة من السّور الّتي يأتي فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور. إنّ آيات هذا الكتاب الحكيم يشار إليها باسم الإشارة الدّالّ على البعد: ﴿تلك﴾ دليلاً على رفيع منزلة آيات هذا الكتاب العزيز. ويوصف الكتاب الكريم بأنّه حكيم. فصفة الحكمة تتّسم بها كلّ آيات القرآن الكريم. والحكمة بطبعها ترضي كلّ عقلٍ بمعناها، وتشبع كلّ نفسٍ بمبناها. والقرآن الكريم يرضي كلّ عقلٍ حصيفٍ بجليل معناه، ويشبع كلّ نفسٍ صافية، وقلبٍ سليم، بجميل مبناه، ويشنّف كلّ أذن بظاهرة تلاؤم أ صواته، الّتي تضيف إلى جلال المعنى جلالاً والى جمال المبنى جمالا.

---

(١) الإتقان ١/٤٣

وهذا الكتاب الحكيم هدًى للمتّقين من الضّلالة، فهم يهتدون بنوره، ويستضيئون بضوئه، ورحمة من الله تعالى للمحسنين الّذين أحسنوا العمل، وأرادوا بأعمالهم الصّالحة وجه ربّهم الأعلى، وبلغوا مرتبه الإحسان، بالمعنى الّذي بيّنه الحديث النّبويّ الشّريف، بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك(١).

وهؤلاء المحسنون الّذين بلغوا مرتبة الإحسان مِنْ أهمّ نعوتهم أنّهم يقيمون الصّلاة المفروضة والنّوافل ويؤدّونها على وجهها بأركانها وواجباتها وسننها وفي أوقاتها ،ويؤتون الزّكاة الّتي فرضها الله تعالى عليهم في أموالهم ويعطونها أصحابها ومستحقيها، وهم بالآخرة وما يتعلّق بها من بعثٍ وحسابٍ وثوابٍ وعقاب، وكلّ ذلك من الغيب، هم بلغوا مرتبة الإيقان. واللّطيف في هؤلاء المؤمنين المتّقين أنّهم بلغوا مرتبة الإيقان، وهي أرفع مراتب الإيمان، بشأن الآخرة، وهي من الغيب. وهكذا يجمع هؤلاء المؤمنون المتّقون المحسنون الموقنون بين الايمان بعالم الغيب والإيمان بعالم الشّهادة.

إن أولئك الّذين تلك نعوتهم على هدًى من ربّهم في هذه الحياة الدّنيا، ويلاحظ مجيء حرف: «على» الدّالّ على الاستعلاء وعلى تمكّن هؤلاء المؤمنين من الهدى بفضل ربّهم جلّ وعلا. وإنّ أولئك الّذين تلك نعوتهم هم المفلحون في الآخرة، الفائزون بدخول جنّات النّعيم، الناجون من عذاب الجحيم. قال تعالى(٢): ﴿كلّ نفس ذائقة الموت. وإنّما توفّون أجوركم يوم القيامة. فمن زُحْزِح عن النّار وأدخل الجنّة فقد فاز. وما الحياة الدّنيا إلا متاع الغرور﴾

(١) صحيح البخاري ١ / ٢٠

(٢) سورة آل عمران ١٨٥

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

ومن النّاس من يشتري لهو الحديث: ومن النّاس من يشتري ما كان ٥ الحديث ملهياً عن سبيل الله عمّا نهى الله عن استماعه أو رسوله(١).

ليضلّ عن سبيل الله: ليصدّ ذلك الّذي يشتري من لهو الحديث عن دين ا وطاعته وما يقرّب إليه من قراءة قرآن وذكر الله(٢)

بغير علم: جهلاً منه بماله في العاقبة عند الله من وزر ذلك وإثمه(٣)

ويتخذها: ويتخذ آيات الله (٤)

هزوا: مهزوءاً بها (٥)

كأن: مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضميرٌ محذوفٌ يعود على من يشتري(٦)

وقراً: ثِقَلا(٧).

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٤١

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٤١

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٤١

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٤١

(٥) الجلالين

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٩١

(٧) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٢

سبب النزول

جاء في سبب نزول الآية الكريمة السّادسة: قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النّضْر بن الحارث، وذلك أنّه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويحدّث بها قريشاً ويقول لهم: إنّ محمداً يحدّثكم بحديث عادٍ وثمود وأنا أحدثكم بحديث رُسْتُم وإستِفْنْدِيار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن. فنزلت فيه هذه الآية(١).

ومن المعروف أن العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

إنّ من النّاس من يشتري بدرهمه ودينـاره، أو باختياره وإيثاره، ماكان من الحديث ملهياً عن سبيل الله ممّا نهى الله تعالى عن استماعه أو رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ليضلّ عن سبيل الله تعالى ويصرف إلى السّبل الأخرى المتفرّقة، جهلاً منه بما عليه من وزر، ويتّخذ آيات الله تعالى مهزوءاً بها. ومن هؤلاء النّضر ابن الحارث الذي يصرف الناس عن الاستماع لآي الذّكر الحكيم، إلى الاستماع لأخبار الفرس، ومن هؤلاء الّذين يصرفون النّاس بكلّ غناءٍ ولعبٍ ولهوٍ وطبل وما إلى ذلك. إنّ لأولئك الملهين عذاباً مهيناً في الآخرة وخزياً مبيناً.

وإذا تُتْلَى على هذا المُلْهِى آيات الله تعالى ويُقْرأ عليه قرآنه الكريم ولّى مستكبراً، وانصرف مستنكفاً، كأنّه لم يسمع آي الذكر الحكيم، كأنّ في أذنيه ثِقلاً، وفي سمعه صمماً، فبشّره، على سبيل الاستهزاء به، بعذاب أليم، وأخذٍ شديدٍ. ومن البيّن أنّ هذا الفريق من النّاس نقيض المحسنين السّابقين وخِلافُهم.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ٤٠٠

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

إنّ الّذين آمنوا بالله تعالى، وصدّقوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم، واعتنقوا دين الإسلام، واتّخذوا القرآن الكريم، الّذي تبيّنه سنّة المصطفى صلّي الله عليه وسلّم، منهاجاً لهم في الحياة، وترجموا ما اعتقده الجنان، ونطق به اللّسان، عملاً صالحاً أرادوا به وجه ربّهم الأعلى، أولئك لهم يوم القيامة جنّات النّعيم. خالدين في تلك الجنّات أبداً. وعدهم الله وعداً حقّاً لاشكّ فيه ولا خُلْف له[1] وهو جلّ وعلا العزيز في ملكه، الحكيم في تدبير خلقه، وتصريف كونه.

(١) أسباب النّزول للواحدي ٤٠٠

خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

أن تميد بكم : لئلاّ تتحرّك بكم(١)
من كلّ زوج : من كلّ نوع(٢) وصنف(٣)
كريم : حسن(٤)

الله تعالى الّذي نزّل القرآن الكريم على عبده محمّد صلّى الله عليه وسلّم. هو الّذي خلق السّماوات ورفعها بيد القدرة الإلهيّة بغير عمد يراها البشر وبغير عمد على الحقيقة. لقد تأكّد للعلماء ماسبق أنّ قرّرته الآية الكريمة من رفع الحقّ جلّ وعلا السّماوات بغير عمد نراها، فإنّ السّماوات مرفوعةٌ بإذن الله تعالى بواسطة مايسمّى بقانون الجاذبيّة.

والله سبحانه وتعالى خلق الأرض ورفعها كما رفع السّماوات بقانون الجاذبيّة كذلك، والقى فيها جبالاً راسيات مرتفعات شامخات لئلاّ تتحرّك بنا وتهتزّ. تضطرب بنا وترتج، وبثّ فيها من كلّ مايدبّ عليها ممّاله روح، ابتداءً بالإنسان. وانتهاءً بأصغر ذي روح، وأنزل من السّماء ماءً فأحيا به الأرض الميتة، وأنبت فيها من كلّ نوع كريم، وصنفٍ حسن.

إنّ السماوات والأرض ومن فيهنّ ومافيهنّ خلق الله تعالى وحده لاشريك

(١) الجلالين وانظر تفسير الطّبري ٢١/ ٤٢ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٩٣
(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٢
(٣) الجلالين
(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٢

له، فهو المستحقّ لأن يفرد بالألوهة والعبادة، فأروني أيّها المشركون ماذا خلق الّذين تعبدونهم من دوني وتجعلونهم لي أندادا. إنّ الّذين تعبدونهم من دوني أيّها المشركون لن يخلقوا ذباباً حقيراً ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

إنّ المشركين لم يحملهم على عبادة الآلهة الزّائفة، أنّها خلقت شيئاً في هذا الكون ولو هيّنا، بل الّذي حملهم على الشّرك ضلالهم المبين، وخروجهم الواضح عن الصّراط المستقيم.

(٢)
(لقمان الحكيم يعظ ابنه)
الآيات (١٢-١٩)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

ولقد آتينا لقمان: عن مجاهد: كان لقمان رجلاً صالحاً ولم يكن نبيّا(١) واختلف السّلف في لقمان عليه السّلام: هل كان نبيّا أو عبداً صالحاً من غير نبوّة؟ على قولين، الأكثرون على الثّاني(٢) ويقال إنّه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمن داود عليه السّلام(٣) وامتنع لقمان عن التّنوين للعلميّة والعجمة(٤).

الحكمة: الحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعقل. وهي من الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وهذا هو الّذي وُصف به لقمان في الآية الكريمة، ونبّه على جملتها بما وصفه بها (٥) والحكمة: الفقه في الدّين والعقل، والإ صابة في القول(٦).

أن اشكر لله: وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من الحكمة(٧)

حميد: محمود على كلّ حال، له الحمد على نعمه، كفر العبد نعمته أو شكره عليها. وهو مصروف من مفعول إلى فعيل(٨).

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/٤٣

(٢) تفسير ابن كثير ٦/٣٣٦

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٣٣٧

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/١٩٥

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفاني: «حكم» ١/١٦٧و١٦٨

(٦) تفسير الطّبري ٢١/٤٣

(٧) الجلالين

(٨) تفسير الطّبري ٢١/٤٤

ولقد آتى الله سبحانه وتعالى لقمان الحكمة فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة. والحكمة بمعنى الفقه في الدّين، والإصابة في القول والفعل، ورجاحة العقل، وسلامة القلب، ونقاء الصدر، وصفاء النّفس، وقد قال الحقّ جلّ وعلا(١): ﴿يؤتي الحكمة من يشاء. ومن يُؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً. ومايذّكّر إلاّ أولو الألباب﴾.

وقد أمر الحقّ جلّ وعلا لقمان الحكيم وقال له اشكر لله تعالى، كفاء النّعم الّتي أسبغتها عليك، وفي مقدّمتها الحكمة التي اصطفيتك بها، بأن تشكر لي نعمي العظيمة عليك، بإفرادي بالعبادة، والإحسان إلى عبادي، بالكلمة الطّيّبة، والنّصيحة الصّادقة، والمعاملة الحسنة، وحذارِ من الكفر والكفران.

إنّ من يشكر لله تعالى، بأن يجازى إحسان الله تعالى إليه بالإحسان، فإنّما يشكر لنفسه، لأنّ ثواب الشّكر عائدٌ إليه، أمّا من كفر فإنّ كفره وكفرانه مرتدّان عليه، وسينال الخزي والهوان في الأولى والآخرة. والله تعالى هو الغنيّ عن عباده، أحسن العباد أم أساءوا، أطاعوه عزّ وجلّ أم عصوه، لا تزيد طاعة العباد في ملكه جلّ وعلا شيئاً، ولا تنقص المعصية من ملكه جلّ وعلا شيئا. والله تعالى هو المحمود على كلّ حال، له الحمد على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، سواءً شكر العبد أو كفر، أطاع أو عصى.

---

(١) سورة البقرة ٢٦٩

وَإِذْ قَالَ
لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

وإذ قال : واذكر يا محمّد إذ قال(١)
يابُنَيّ : تصغير إشفاق(٢)
لظلمٌ عظيم : لخطأٌ من القول عظيم(٣)

لقمان الحكيم الّذي آتاه الله تعالى الحكمة وفصل الخطاب ينثر حكمه، وينشر مواعظه، ويهتمّ بأهله كما يهتم بالآخرين، وهاهوذا يعظ ابنه، وفلذة كبده، وقد يكون هذا الابن صغيراً ومن ثمّ يكون القول: ﴿يابنيّ﴾ تصغير تمليح. وقد يكون كبيراومن ثم يكون تصغير إشفاق. وفي كلّ الأحوال تتجلّى الحكمة التي أكرم الله تعالى بها لقمان الحكيم في اصطفائه ابنه بالنّصيحة الغالية، وذلك بنهي ابنه عن ارتكاب الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى، وهو الشّرك. وحينما لا يتّصف الإنسان بالشرك يكون قد اتّصف بفضل الله تعالى بالتّوحيد.

إنّ الآية الكريمة تقول: واذكر يا محمّد إذ قال لقمان الحكيم لولده وفلذة كبده، يابنيّ لا تشرك بالله تعالى العليّ العظيم، بل وحّده وأفرده بالعبادة. إنّ الشّرك لظلمٌ عظيمٌ للعبادة بوضعها في غير موضعها، وللإنسان نفسه بإيثار النّار على الجنة، وإنّ الشّرك لذنبٌ كبير وخطأٌ خطير. وكيف لا يكون الشّرك كذلك وهو الذّنب الوحيد الذي لا يغفره الله تعالى.

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٤
(٢) الجلالين
(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٤

روي البخاريّ عن عبدالله بن مسعود[1] رضى الله عنه قال: لما نزّلت هذه الآية[2]: ﴿الّذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يَلْبِسْ إيمانه بظلم ؟ قال رسول الله ﷺ : إنّه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم[3].

(١) فتح الباري ٨/ ٥١٣

(٢) سورة الانعام ٨٢ وقد أكملنا الآية الكريمة

(٣) فتح الباري ٨/ ٥١٣ حديث رقم ٤٧٧٦

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ
وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ
إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

ووصّينا الإنسان بوالديه: وأمرنا الإنسان ببرّ والديه(١)

حملته أمّه وهناً على وهن: ضعفاً على ضعف، وشدّةً على شدّة(٢) وجهداً على جهد(٣) أي ضعفت للحمل وضعفت للطلق وضعفت للولادة(٤) وهناً: مصدر في موضع الحال. أو مفعول مطلق لفعل محذوف(٥) أي: فوهنت وهناً على وهن(٦) والجملة المقدّرة حال مِنْ: ﴿أُمُّه﴾(٧).

وفصاله: وفطامه(٨)

في عامين: في انقضاء عامين (٩) ومن ههنا استنبط ابن عبّاس وغيره من

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٤

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٤

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٤

(٤) الجلالين

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٩٧

(٦) الجلالين

(٧) الجدول في إعاب القرآن وصرفه ١٠/ ١٩٧

(٨) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٥

(٩) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٥

الأئمّة أنّ أقل مدّة الحمل ستّة أشهر، لأنه قال تعالى في الآية الأخرى(١): ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾(٢)

وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم: وإن حَرَصا عليك كلّ الحِرْص على أن تتابعهما على دينهما(٣) وأن تشرك بي في عبادتك إيّاي معي غيري ممّا لا تعلم أنّه لي شريك، ولا شريك له، تعالى ذكره علواً كبيراً(٤).

وصاحبهما في الدّنيا معروفا: وصاحبهما في الدّنيا بالطّاعة لهما فيما لا تبعة عليك فيه فيما بينك وبين ربّك ولا إثم(٥) أي بالمعروف، البرّ والصّلة(٦).

واتّبع سبيل من أناب إليّ : واسلك طريق من تاب من شركه، ورجع إلى الإسلام، واتّبع محمّداً ﷺ (٧) يعني المؤمنين(٨).

ويقال إنّ الآيتين الكريمتين نزلتا في سعد بن أبي وقاص. عن مصعب بن سعد قال: حلفت أمّ سعد أن لا تأكل ولا تشرب حتّى يتحوّل سعد عن دينه. قال: فأبى عليها. فلم تزل كذلك حتّى غشي عليها. قال: فأتاها بنوها فسقوها. قال: فلمّا أفاقت دعت الله عليه فنزلت الآيتان الكريمتان(٩).

ويقال : بل نزلت الآيتان الكريمتان في سعد بن مالك. قال سعد بن مالك: لمّا أَسْلَمْتُ حَلَفَتْ أمّي لا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً. قال: فناشدتها أوّل يومٍ

---

(١) سورة الأحقاف ١٥

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٩

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٩

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٥

(٥) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٥

(٦) الجلالين وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٩٨

(٧) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٥

(٨) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٩

(٩) انظر تفسير الطبري ٢١/ ٤٥

فأبت وصبرت. فلمّا كان اليوم الثّاني ناشدتها فأبت. فلمّا كان اليوم الثّالث ناشدتها فأبت. فقلت : والله لو كانت لك مائة نَفْس لَخَرَجتْ قبل أن أدع ديني هذا. فلمّا رأت ذلك وعرفت أنّى لست فاعلاً أكَلَتْ. ونزلت الآيتان الكريمتان(١).

لقمان الحكيم نهى ابنه عن الشّرك في الآية الكريمة السّابقة. وفي الآيتين الكريمتين اللّتين نحن بصددهما المعترضتين يُوصِي الحقّ جلّ وعلا الأبناء ببرّ الوالدين والشّكر لهما بعد الشكر لله تعالى بتوحيده جلّ وعلا وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة، وينهى الأبناء عن طاعة الوالدين إذا دَعَوَا إلى الشرك، ويأمر الأبناء بمصاحبة الوالدين في الدّنيا بالمعروف، وبسلوك سبيل المؤمنين، ويوم القيامة يكون الحساب والجزاء.

ويتبيّن من الآيتين الكريمتين المنزلة الرّفيعة للوالدين في الإسلام، كما يتبيّن أنّ برّهما يأتي بعد توحيد الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة. إنّ الوالدين لا طاعة لهما حينما يدعوان إلى الشرك. وبذلك يتأكّد حقّ الله تعالى أوّلا، ثمّ يتأكّد حقّ الوالدين بعد ذلك شريطة أن يتناغم هذا الحقّ مع توحيد الله تعالى. فإذا اصطدم حقّ الوالدين الدّاعيين إلى الشّرك مع توحيد الله تعالى يسقط حقّهما المصطدم مع حقّ الله تعالى، ويبقى لهما مادون ذلك من برٍّ بهما، وعطفٍ عليهما، وإحسان إليهما مع كونهما مشركين.

وإنّما جاءت الآيتان الكريمتان معترضتين وليستا على لسان لقمان الحكيم لأنّ لقمان بعد أن بيّن لابنه حقّ الله تعالى، بقى حقّه وحق زوجه باعتبارهما والدي الابن المخاطب، كما بقى حقّ الوالدين عموماً. وفضلاً من الله تعالى ونعمة يبيّن الحقّ جلّ وعلا حقّ الوالدين ووجوب برّ الأبناء لهما والحدود الّتي ينتهى عندها ذلك البرّ في أسمى صوره وأبهى حلله، بحيث يحلّق في فلك العبوديّة، بعيداً عن آفاق توحيد الله تعالى ومقام الألوهيّة. وهكذا تبيّن الآيتان الكريمتان المعترضتان

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢١/ ٤٥

حقّ الوالدين، وتؤكّد معنى توحيد الله تعالى والانتهاء عن الشّرك، وهو المعنى الّذي تؤكّده الآيتان الكريمتان السّابقتان الأوليان.

إنّ الآية الكريمة الأولى المعترضة تقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال وصّى جنس الإنسان، وليس المؤمن وحده، بالإحسان إلى الوالدين وببرّهما. ويتقدّم حقّ الوالدة على الوالد لأنّ الوالدة حملت ولدها ووهنت وهْناً على وهن، فهناك وهن الحمل، ووهن الطّلق، ووهن الولادة. والله تعالى أمر جنس الإنسان بأن يشكر له عزّ وجلّ نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة، بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة، وبأن يشكر لوالديه اللّذين ربّياه صغيراً، وبخاصة الوالدة الّتي ترضع طفلها وترعاه. إلى الله تعالى المرجع يوم القيامة، للحساب والجزاء.

وإنّ الآية الكريمة الأخرى المعترضة تقول للابن المؤمن الموحّد: وإن جاهدك والداك وبذلا منتهى طاقتهما وخاصماك على أن تشرك بالله تعالى مالا تعلم أنّه شريكٌ لله تعالى، وليس لله تعالى شريك، فلا تطعهما مطلقاً، وصاحبهما في هذه الدّنيا بالمعروف من القول والفعل وإن كانا مشركين، واتّبع سبيل من أناب إليّ ورجع من المؤمنين المتّقين المحسنين: ﴿الّذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾(١) إلى الله تعالى مرجع النّاس جميعاً يوم القيامة فينبّئهم عزّ وجلّ بما كانوا يعملون في الدّنيا ويجازيهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

ويعود السّياق إلى ذكر بقيّة مواعظ لقمان الحكيم لابنه.

---

(١) سورة لقمان ٤

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾

يابُنَيّ إنّها : أي الخصلة السّيئة(١) والمعصية والخطيئة(٢) والمظلمة(٣).

مثقال : زنة(٤)

حبّةٍ من خردل : الخردل نباتٌ عُشبيّ ينبت في الحقول وعلى حواشي الطّرق تستعمل بزوره في الطّبّ، ومنه بزورٌ يتبّل بها الطّعام. الواحدة خردلة. ويقال: ما عندي من كذا خردلة: أي شيء. ويضرب به المثل في الصّغر(٥)

في صخرة : في جبل(٦)

إنّ الله لطيف : باستخراج الحبّة من موضعها حيث كانت(٧)

خبير : بموضعها(٨).

بما أنّ الآيتين الكريمتين السّابقتين تعترضان مواعظ لقمان الحكيم، ففي الإمكان ذكر الآية الكريمة السّابقة من أجل الاستئناس بها في معرفة معنى الضّمير في القول: ﴿يابنيّ إنّها﴾ وهذه هي الآية الكريمة الثالثة عشرة. قال تعالى: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنيّ لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٠٠ والجلالين

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٦

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٤٠

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٦

(٥) انظر المعجم الوسيط: «الخردل»

(٦) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٧

(٧) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٧

(٨) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٧

ومن البيّن أنّ هذه الآية الكريمة تتعلّق بالشّرك الّذي ينهى لقمان الحكيم ابنه عن ارتكابه لأنّه خطأ من القول عظيم، ولأنّه أسوأ الخصال، وأكبر المعاصي. في ضوء الوقوف على هذا المعنى نستطيع أن نذهب إلى أنّ اسم الضمير في القول : ﴿يابنيّ إنّها﴾ يعود، والله تعالى أعلم، إلى خصلةٍ سيّئةٍ منهيٍّ عنها هي الأخرى، وذلك على غرار النّهي عن أكبر خصلةٍ سيئةٍ وهي الشّرك.

إنّ لقمان الحكيم ينادي ابنه في صيغة تصغير الإشفاق مرّةً أخرى وذلك في القول: ﴿يابنيّ﴾ ويقوّل له: إنّ الخصلة السّيّئة والمعصية والخطيئة والمظلمة إن تكن في صغر حجمها زنة حبّةٍ واحدةٍ من الخردل الّذي يضرب به المثل في الصّغر، فتكن تلك الحبّة في أعماق جبلٍ، أو في السّماوات الواسعة، أو في الأرض الفسيحة، فإنّ الله تعالى يأتي بها يوم القيامة ويجازي عليها. وإنّ القول: ﴿يأت بها الله﴾ من الأدلّة على أنّ جملة: «أتى» لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد. إنّ هذه الحبّة مهما تكن موغلة في البعد عن البشر فإنّ الله سبحانه وتعالى اللّطيف الخبير يأتي بها.

إنّ الله لطيفٌ في استخراج تلك الحبّة، خبيرٌ بموضعها وبكيفية استخراجها، ويجازي عليها.

ومايقال عن الخصلة السّيّئة يقال عن الخصلة الحسنة الّتي يثيب الله تعالى عليها.

يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ
بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾

ينادي لقمان الحكيم ابنه للمرّة الثّالثة في تصغير الإشفاق: ﴿يابنيّ﴾ ويأمره بإقام الصّلاة بأركانها وواجباتها وسننها في أوقاتها بكلّ شروطها، وأن يأمر الآخرين بالمعروف شرعاً وعقلاً وعرفاً، وأن ينهاهم عن المنكر شرعاً وعقلاً وعرفا، وأن يصبر على ما أصابه من النّاس الّذين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وعلى ما أصابه في هذه الحياة الدّنيا من ابتلاء. إنّ كلّ ذلك من الأمور الّتي أمر الله تعالى بها(١) والّتي ينبغي أن يعقد المرء قلبه على إمضائها، ويصرف عزيمته إلى تحقيقها(٢)

ومن البيّن أنّ الصّلاة يتّجه بها العبد إلى بارئه جلّ وعلا، وأنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتّجه إلى عباد الله تعالى، وفي ذلك الكثير من المشقّة الّتي تحتاج إلى الصّبر، وكذلك الصّلاة هي بحاجة إلى الصّبر. ويأتي الأمر بالصّبر صراحةً في القول: ﴿واصبر على ما أصابك﴾ إنّ الآية الكريمة تحث على الصّبر بطريقةٍ غير مباشرةٍ وطريقةٍ مباشرة.

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢١/٤٧

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «عزم» ٢/٤٣٤

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

ولاتصعّر خدّك للناس: أصل الصّعَر داءٌ يأخذ الإبل في أعناقها أو رءوسها حتّى تلفت أعناقها عن رءوسها فيشبّه به الرّجل المتكبّر على النّاس(١) يقول ابن عبّاس: ولا تتكبّر فتحقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك(٢)

ولا تمش في الأرض مرحا: ولا تمش في الأرض مختالا(٣) ولا تمش في الأرض بالخيلاء(٤) والمرح شدّة الفرح(٥).

فخور: ذي فخر(٦) ومباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه(٧)

ينهى لقمان الحكيم ابنه عن الكبْر في كلّ صوره، أي يأمره بالتّواضع ضمنا. إنّه ينهى ابنه عن التّكبّر واحتقار عباد الله تعالى بأن يعرض عنهم بوجهه إذا كلّموه تعالياً عليهم، وكأنّه ذلك البعير الّذي مال عنقه بسبب المرض في ذلك العنق أو في رأسه، فالمتكبّر مريضٌ كالبعير المريض، ولكنّ مرض المتكبّر نفسيّ.

كما ينهى لقمان الحكيم ابنه عن صورةٍ أخرى من صور الكبر، وهي المشي في الأرض بالخيلاء بباعث المرح والفرح الشديد والاستكبار.

ومن البيّن أنّ تصعير الخدّ وإمالته عن النّظر بباعث الكبر يكون حالة السّكون

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٧ وانظر لسان العرب «صعر»

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٧

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٧

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٧

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «مرح» ٢/ ٦٠٢

(٦) تفسير الطّبري ٢١/ ٤٧

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «فخر» ٢/ ٤٨٤

غالباً، وأنّ الاختيال يرتبط بالمشي والحركة، وكأنّ المختال يتمنّى أن يمشي على رءوس العباد، أو أن يبلغ الجبال طولا.

على أنّ ثمّةً صفةً ثالثة من صور الكبر والتّعالي على عباد الله تعالى، ينهى لقمان الحكيم ابنه عن الاتّصاف بها، وهذه الصّفة متعلّقة باللّسان، وهي صفة الفخر. بمعنى المباهاة على النّاس في الأشياء الخارجة كالمال والجاه.

ومن البيّن أنّ هذه الصّفات الثّلاث مرغوبٌ عنها، وينبغي على المؤمن أن يتحلّى بالصّفات التّي تقابلها وتضادّها. إنّ تصعير الخد وإمالته عن النّاس بباعث الكبر ينبغي أن يحلّ محلّه تطبيق مثل ماجاء في الحديث النّبويّ الشّريف «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»(١) وجاء في الحديث النّبويّ الشّريف الّذي رواه أبو داود في سننه(٢): «ولا تَحْقِرَنّ شيئاً من المعروف، وأن تُكَلِّم أخاك وأنت منبسطٌ إليه وجهك، إنّ ذلك من المعروف» وجاء في الحديث النّبويّ الشريف الّذي رواه التّرمذي في سننه(٣): «قال رسول الله ﷺ: تبسّمك في وجه أخيك لك صدقة».

والآية الكريمة توميء إلى وجه الصّواب فيما له عَلاقة على نحوٍ مّا بالصّفتين الأخريين المرغوب عنهما، الاختيال والفخر.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٤١

(٢) سنن أبي داود ٤/ ٥٦ حديث رقم ٤٠٨٤ تحقيق محمّد محي الدين عبدالحميد. تصوير بيروت

(٣) سنن التّرمذيّ ٤/ ٢٩٩ حديث رقم ١٩٥٦ تحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر تصوير المكتبة الفيصلية بدون تاريخ.

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ

وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

واقصد فس مشيك : وتواضع في مشيك إذا مشيت ولا تستكبر ولاتستعجل ولكن اتّئد(١)

واغضض من صوتك: واخفض من صوتك فاجعله قصداً إذا تكلّمت(٢)

إنّ أنكر الأصوات : إنّ أقبح الأصوات(٣).

لصوت الحمير : أوّله زفير وآخره شهيق(٤) والزّفير: إخراج النّفَس بعد مَدِّه(٥) والشّهيق: إدخال النّفَس إلى الرّئتين(٦).

لقمان الحكيم بأمر ابنه بأن يتواضع في مشيه إذا مشى، وينهاه عن أن يستكبر أو يستعجل، ولكن أن يتّئد، محقّقاً معنى قول الحقّ جلّ وعلا في نعت عباد الرّحمن في سورة الفرقان(٧): ﴿وعباد الرّحمن الّذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾.

كما يأمر لقمان الحكيم ابنه بأن يخفض من صوته حينما يتكلّم. وخفض الصّوت من سمات المتواضعين الحييّن غير المتكبّرين الفخورين الّذين من سماتهم رفع الصّوت حينما يتحدّثون عن أنفسهم ويفخرون. وكأنّ هذه الآية الكريمة تبيّن نعت المشي والكلام، وذلك في مقابل تبيين الآية الكريمة السّابقة سيّئهما.

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/٤٨ وانظر مفردات الرّاغب الأصفاني : «قصد» ٢/٥٢٣

(٢) تفسير الطّبري ٢١/٤٨

(٣) تفسير الطّبري ٢١/٤٩

(٤) تفسير الطّبري ٢١/٤٩

(٥) المعجم الوسيط : «زفر»

(٦) المعجم الوسيط : «شهق»

(٧) الآية ٦٣

وتقرّر الآيـة الكريمة في مجـال تقبيح رفـع الصّوت عمـوما، سـاعة الفـخر خصوصاً، أنّ أنكر الأصوات وأقبحها لصوت الحمير. إنّ العليم الخبير الّذي يعلم مَنْ خلق ومـاخـلق جلّ وعـلا هو الّذي يقـول: ﴿إنّ أنـكر الأصـوات لصـوت الحمير﴾.

وإنّ المرء حينـما يستـعرض أصـوات كلّ المخلوقات، بما في ذلك الحـيوانات المفترسـة، يتأكدّ له المعنى الّذي قـرّرته الآية الكريمة. ما أقبح صوت الحـمار، وما أشدّ إزعاجه، ومـا أكثر نَشازه، وما أعظم تبّلد إحسـاس الحمار، فكما يقف في العقـبة ويقطع الـطّريق، يزعج الخلائق بصـوته القبـيح، الّذي أوّله زفيـرٌ وإخراج النَّفَس، وآخره شهيقٌ وإدخال النَفَس.

(٣)
(ثواب الشّكورين لله تعالى نعَمَهُ المحسنين، وعقاب الكفورين النّعم اَلكافرين)
الآيات (٢٠-٢٤)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

وأسبغ عليكم: أوسع وأتم(١) درعٌ سابغٌ تامّ واسع. وعنه استعير إسباغ الوضوء وإسباغ النّعم(٢)

نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنة: الظّاهرة كلّ مايعلم بالمشاهدة. والباطنة ما لا يعلم إلاّ بدليل، أولا يعلم أصلا. فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدي إلى العلم بها(٣) ومن النّعم الظّاهرة البصر والسّمع واللّسان وسائر الجوارح الظّاهرة. والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك(٤)

من يجادل في الله : من يخاصم في توحيد الله وإخلاص الطّاعة والعبادة له(٥).

ولاهدًى : من رسول(٦)

---

(١) الجلالين

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سبغ» ١/ ٢٩٤

(٣) الكشّاف ٢/ ٥١٨

(٤) انظر الكشّاف ٢/ ٥١٨

(٥) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٠

(٦) الجلالين

ولا كتابٍ منير : ولا بتنزيلٍ من الله جاء بما يدّعي يبيّن حقّيّة دعواه(١).
أو لو كان الشّيطان يدعوهم : أيتّبعونهم ولو كان الشّيطان يدعوهم(٢).
إلى عذاب السّعير : يعنى عذاب النّار الّتي تتسعّر وتلتهب(٣).

ألم تروا أيّها النّاس أنّ الله سبحانه وتعالى قد سخّر لكم ما في السّماوات من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وكواكب وسحابٍ وماءٍ وما إلى ذلك، وما في الأرض من بحارٍ وأنهارٍ وقفارٍ وسهولٍ وجبال وزروعٍ وضروعٍ وما إلى ذلك، وأوسع وأتمّ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة. وفي مقدمة النّعم الظّاهرة هذا الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، وفي مقدمة النّعم الباطنة نعمة العقل الرّشيد، والفكر السّديد، والقلب الشهيد، والبصيرة النّيّرة. ومِنَ النّاس من يجادل في دين الله تعالى ويخاصم في توحيده عزّ وجلّ بغير علمٍ صحيح، ولا هُدًى من رسول، ولا كتابٍ منيرٍ موحىً به من ربّ العالمين، بل بباعث التّقليد الأعمى للأسلاف.

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتّبعوا ما أنزل الله تعالى من كتابٍ كريم وسنّةٍ مطهّرة على قلب المصطفى ﷺ قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأوثان. أيتّبعونهم ولو كان الشّيطان الرّجيم يدعوهم إلى عذاب السّعير ونار الجحيم!

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٠
(٢) الكشاف ٢/ ٥١٨
(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٠

وَمَن يُسْلِمْ
وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

فقد استمسك بالعروة الوثقى: فقد تمسّك بالطّرف الأوثق الّذي لا يَخافُ انقطاعَهُ من تمسّك به (١) عن ابن عبّاس: العروة الوثقى لا أله إلاّ الله(٢).

وإلى الله عاقبة الأمور: وإلى الله مرجع عاقبة كلّ أمر، خيره وشرّه، وهو المسائل أهله عنه ومجازيهم عليه(٣)

ثمّ نضطرّهم : ثمّ نوردهم على كرهٍ منهم(٤) ونلجئهم(٥)

إنّ من النّاس من يشكر لله تعالى نعمه وآلاءه، فيفرده عزّ وجلّ بالعبادة، ويسلم وجهه إلى الله تعالى، ويخضع لأمره، ويذعن لمشيئته، ويتّبع شريعته، ويحسن عمله، فيتّبع ما أُمِرَ به، ويبتعد عمّا نُهِي عنه. إنّ هذا الفريق المحسن هو الّذي تمّسك بالطّرف الأوثق الّذي لا يخاف من تمسك به انقطاعه، فأعلن

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٠

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٠

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٠

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ٥١

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٥٠

الشهادتين، وترجم معانيهما إلى عمل، فله العاقبة الحسنة حينما يرجع إلى الله تعالى فيدخله بفضله جنّات النّعيم.

وإنّ من النّاس من لا يشكر لله تعالى نعمه وآلاءه بل يتّسم والعياذ بالله بالكفر والكفران للنّعم، فلا يحزنك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم كفره، فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب. إنّ إلينا مرجع هؤلاء الكافرين يوم القيامة، فننبّئهم بما عملوا، ونجازيهم على أعمالهم وأ قوالهم ونيّاتهم السّيّئة. إنّ الله تعالى عليمٌ بما في الصّدور، وبما توسوس به كلّ نفس، ويضمره كلّ قلب، فلا يخفي عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

نمتّعهم قليلاً في هذه الدّنيا القصيرة الأجل، السّريعة الزّوال، ثمّ نلجئهم إلى عذابٍ غليظٍ إليمٍ شديد.

ومن البيّن أنّنا بصدد تسليةٍ مباشرةٍ للمصطفى ﷺ في هذه المرحلة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة في الفترة المكّيّة.

(٤)

(على المشركين المقرّين بتوحيد الرّبوبيّة أن يقرّوا بتوحيد الألوهيّة ويعبدوا الله تعالى العليّ الكبير العليم الخبير وَحْدَه)

الآيات (٢٥-٣٤)

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

بل أكثرهم لا يعلمون : بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون من الّذي له الحمد، وأين موضع الشكر(١)

الحميد : المحمود على نعمه الّتي أنعمها على خلقه(٢)

ولئن سألت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم كفّار مكة، ولئن سألت أيّها المؤمن المشركين: ﴿من خلق السّماوات والأرض ليقولنّ الله﴾ إنّهم يعترفون بأنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق السّماوات والأرض ومن فيهنّ ومافيهنّ، ويقرّون بتوحيد الرّبوبيّة. إنّ الكفّار حينما يكون هذا جوابهم، وهم دائماً بشأن توحيد الرّبوبيّة يأتون بالجواب الصّحيح، فقل أيّها السّائل: الحمدلله تعالى الّذي جعلهم ينطقون بالحقّ. ولكنّ هؤلاء المجيبين لا يعلمون أنّ جوابهم المقرّين فيه بتوحيد الرّبوبيّة ينبغي أن يعقبه الإقرار بتوحيد الألوهيّة، وذلك بإفراد الله تعالى بالعبادة. إنّ أكثر هؤلاء المجيبين لا يعلمون من الّذي له الحمد، وهو الله تعالى، وأين موضع الشّكر، وذلك بإفراد الله تعالى بالعبادة. ولمّا كان القوم لا يقرّون بتوحيد الألوهيّة فإنّ إقرارهم بتوحيد الرّبوبيّة لم ينفعهم.

إن لله تعالى ما في السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً لذا ينبغي توحيد الله تعالى الغنيّ عن خلقه، المحمود على نعمه، وذلك بإفراده جلّ وعلا بالعبادة.

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/٥١

(٢) تفسير الطّبري ٢١/٥١

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

ولو أنّ ما في الأرض : ولو أنّ الّذي في الأرض(١)

والبحر يمدّه : والبحر له مداد(٢) كالمداد المكتوب به(٣) البحر مبتدأ(٤) والواو حاليّة(٥) قال ابن الأنباريّ : سمّي المداد مداداً لإمداده الكاتب، من قولهم: أمددت الجيش بمدد(٦)

يجمل بنا أن ننظر إلى الآية الكريمة في ضوء هذه الآية الكريمة من سورة الكهف(٧) : ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولوجئنا بمثله مددا﴾ ومعنى آية سورة الكهف الكريمة، والله تعالى أعلم: قل يامحمّد لو كان البحر الواسع المتلاطم موجه، والّذي لايكاد يُسْبَر غوره، مداداً لكلمات ربّي جلّ وعلا تُكْتَبُ به تلك الكلمات، لنفد البحر وجفّ ماؤه، قبل أن تنفد كلمات ربّي جلّ وعلا وتنتهي، ولو جئنا بمثل ذلك البحر مدداً، لأنّ مصيره كسابقه النّفاد والجفاف.

من آية سورة الكهف الكريمة يتبيّن أنّ ثمّة كلمات لله تعالى، وأنّ ثمّة بحراً تُكتب به تلك الكلمات، فالبحر بمثابة المداد، فإذا نفد البحر جيء ببحرٍ آخر مثله

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٢٠٧

(٢) تفسير الطّبري ٢١/٥١

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٣٢٩

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٢٠٧

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٢٠٧

(٦) لسان العرب : «مدد»

(٧) الآية ١٠٩

يصادف المصير ذاته، وهكذا دواليك.

في ضوء هذا المعنى سوف ننظر إلى الآية الكريمة من سورة لقمان. إنّ معنى آية سورة لقمان الكريمة، والله تعالى أعلم، ولو أن كلّ ما في الأرض من شجرٍ أقلام، والبحر الأعظم مدادٌ لتلك الأقلام، لتكسّرت الأقلام وفنيت، ونفد ذلك البحر وجفّ مداده كما نفدت بعد ذلك السّبعة الأبحر الّتي جئنا بها وأمددنا بها ذلك البحر، وما نفدت كلمات الله تعالى ولا انتهت. إنّ الله تعالى عزيزٌ في ملكه منتقمٌ من المشركين، حكيمٌ في صنعه وتدبير خلقه.

وبذلك يكون في الآية الكريمة بلاغةٌ بالحذف. وكأنّ أصل الكلام: ولو أنّما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ تكتب بها كلمات الله تعالى، والبحر هو المداد الّذي تكتب به تلك الكلمات، والبحر يمدّه من بعده ويكثّره سبعة أبحر، لتكسّرت الأقلام وفنيت، ونفدت البحار وجفّت، وما نفدت كلمات الله تعالى.

وبذلك يكون البحر مبتدأ، ويعود الضّمير من جملة: «يمدّه» على البحر(١) وجملة يمدّه سبعة أبحر خبر المبتدأ(٢)

وكأن الفعل المضارع: «يمدّ» يقف على الأعراف. فهو بشأن البحر الّذي يسبقه يفيد أنّ ذلك البحر بمثابة المداد لتلك الأقلام. وسبق أن أفدنا هذا المعنى من آية سورة الكهف. وهو بشأن ما بعده يفيد أنّ ثمّة سبعة أبحرٍ تمدّ ذلك البحر وتكثّره.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢١/٥١و٥٢

(٢) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٢٠٧

مَّا خَلْقُكُمْ

وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

ما خلقكم أيّها المشركون المنكرون للبعث ويا أيّها النّاس، ولا بعثكم يوم القيامة وإحياؤكم بعد موتكم، إلاّ كخلق نفسٍ واحدةٍ وبعثها في اليسر والسّهولة على الله تعالى. إنّ الله تعالى سميعٌ لكلّ قول، ومن ذلك قول المشركين المنكرين للبعث، بصيرٌ بما يعمل النّاس أجمعون، وسيجازيهم يوم القيامة على أقوالهم وأعمالهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

كلٌّ يجري إلى أجل مسمّى : كلّ ذلك يجري بأمره إلى قتٍ معلوم وأجلٍ محدود إذا بلغه كوّرت الشّمس والقمر(١) فذهب ضوء الشّمس ونور القمر.

ذلك بأنّ الله هو الحقّ : هذا الّذي أخبرتك يامحمّد أنّ الله فعله إنّما فعله بأنّه الله حقّاً دون مايدعوه هؤلاء المشركون به، وأنّه لا يقدر على فعل ذلك سواه، ولا تصلح الألوهة إلاّ لمن فعل ذلك بقدرته(٢).

وأنّ الله هو العليّ: ذو العلوّ على كلّ شيء وكلّ مادونه فله متذلّلٌ منقاد(٣)

الكبير : الّذي كلّ شيءٍ دونه فله متصاغر(٤)

ألم تعلم أيها المخاطب أنّ الله سبحانه وتعالى يدخل اللّيل في النّهار فيطول النّهار على حساب اللّيل صيفاً، ويدخل النّهار في اللّيل فيطول اللّيل على حساب النّهار شتاءً، وسخّر لمصلحة خلقه الشّمس والقمر، كلٌّ منهما يجري في فلكه إلى أجلٍ مسمّى وموعدٍ محدّد، فيضطرب بإذن الله تعالى خطّ سيرهما، ويذهب ضياء الشمس، ونور القمر المستمدّ من ضياء الشمس، وأنّ الله تعالى بما تعملون أيّها النّاس خبيرٌ فيجازيكم يوم القيامة فيثيبكم أو يعاقبكم.

ذلك المذكور من الأدلّة على قدرة الله تعالى المطلقة، وعلمه المحيط، وتدبيره الكامل بسبب أنّ الله تعالى هو الحقّ والمعبود وحده بحق، وأنّ مايعبد المشركون من

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/٥٣

(٢) تفسير الطّبري ٢١/٥٣

(٣) تفسير الطّبري ٢١/٥٣

(٤) تفسير الطّبري ٢١/٥٣

دون الله تعالى من آلهةٍ زائفة هو البـاطل الّذي يذهب جفاءً ويمضى هباءً، وأنّ الله تعالى هو المتعـالى علىٰ خلقه بالعزّة والقهـر، الأكبر من كلّ كبـير، فكلّ ما دونه خاضعٌ لإرادته، مذعنٌ لمشيئته لا إله غيره، ولا معبود بحقٍّ سواه، سبحانه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ

الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ
كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

ألم تر : يامحمّد(١)

أنّ الفلك : أنّ السّفن(٢)

تجري في البحر بنعمة الله : الباء للمصاحبة أو السّببيّة(٣)

صبّار : من صَبَرَ نَفْسَه عن محارم الله(٤) والصّبّار يقال إذا كان فيه ضربٌ من التّكلّف والمجاهدة(٥)

وإذا غشيهم : أي علا الكفّار(٦)

كالظُّلل : جمع ظُلّة كغرفة وغُرَف وقُرْبةٍ وقُرَب، والظُّلّة : سحابةٌ تُظِلّ. وأكثر مايقال فيما يُستَوْخَم ويُكْرَه(٧).

فمنهم مقتصد : فمنهم مقتصدٌ في قوله وإقراره بربّه وهو مع ذلك مضمر الكفر به (٨) والقَصْد : استقامة الطّريق. ومنه الاقتصاد. والاقتصاد على ضربين.

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/٥٣

(٢) تفسير الطّبري ٢١/٥٣

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٢١٠

(٤) تفسير الطّبري ٢١/٥٣

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «صبر» ٢/٣٦٠

(٦) الجلالين

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ظلل» ٢/٤٠٩

(٨) تفسير الطّبري ٢١/٥٤

أحدهما محمودٌ على الإطلاق وذلك فيما له طرفان إفراطٌ وتفريط، كالجود فإنّه بين الإسراف والبخل، وكالشجاعة فإنّها بين التّهوّر والجبن، ونحو ذلك. والثّاني يكنّى به عمّا يتردّد بين المحمود والمذموم، وهو فيما يقع بين محمودٍ ومذموم، كالواقع بين العدل والجَوْر، والقريب والبعيد، وعلى ذلك قوله[1]: ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد﴾[2]

ختّار : غدّار بعهده. والخَتْرُ عند العرب أقبح الغدر[3]

ألم تر يا محمّد ويا أيّها الإنسان أنّ السّفن تجرى في البحرين، العذب الفرات، والمِلْح الأُجاج، بنعمة الله تعالى وفضله، الّذي جعل في الماء القدرة على حمل السّفن الّتي تجري فيه كالجبال العالية الضخمة، ليرينا عزّ وجلّ من آياته الباهرات الدّالاّت على قدرته المطلقة جلّ وعلا. إن في ذلك التنبيه إلى المذكور لآيات دالاّت على قدرة الله تعالى الّتي لا يعجزها شيء في الأض ولا في السّماء، وبراهين لكلّ مؤمنٍ بلغ من التّحلّي بصفة الصّبر شأواً بعيدا، وبصفة الشّكر نعتاً حميدا.

وإذا علا المشركين في البحر موجٌ كالجبال الّتي تظلّ من تحتها[4] وكالسّحب، دعوا الله تعالى وحده لا شريك له، مخلصين له العبادة، ونسوا الآلهة المزعومة. فلمّا نجّاهم إلى برّ الأمان والسّلامة، فمنهم المذبذب بين الشُّكران والكُفْران، ومنهم الكفور للنّعم الجحود للآلاء. ومايجحد بآيات الله تعالى البيّنات الدّالاّت على قدرته عزّ وجلّ المطلقة، ومنها الإنجاء في البحر، إلاّ كلُّ إنسانٍ متّصفٍ بأقبح الغدر ونقض العهود والمواثيق، وبأشدّ الجحود للنّعم، الكفران للآلاء.

---

(١) سورة فاطر ٣٢

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «قصد» ٢/٥٢٣

(٣) تفسير الطّبري ٢١/٥٤

(٤) الجلالين

ويأتي كفّـار مكة على رأس قائمة المـتّصفين بهـذه الصّفات الغـاية في القبح والبشاعة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

لا يجزي والدٌ عن ولده: لا يغني والدٌ عن ولده(١)

الغرور : بفتح الغين، الشيطان(٢)

بعد ذكر السّياق مجموعةً من الآيات البّينات الدّالاّت على قدرة الله تعالى المطلقة يجيء الأمر المباشر للنّاس أجمعين بالإيمان وتقوى الله تعالى والعمل ليوم الجزاء.

تنادي الآية الكريمة النّاس أجمعين وتأمرهم بأن يتّقوا ربهم عزّ وجلّ ويخافوه بفعل الأوامر واجتناب النّواهي حتى يبلغوا مرتبة التّقوى، الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وبأن يخشوا يوم القيامة الّذي لا يُغْنى فيه والدٌ عن ولده، ولا ولدٌ هو مغنٍ عن والده شيئا. إنّ الحياة الأولى حياة العمل ولاجزاء، وإنّ الحياة الآخرة حياة الجزاء ولا عمل. ويلاحظ أنّ حرص الوالدين على أن يغنيا عن أولادهما يتقدّم في الذّكر، جرياً على عادتهما في الحياة الأولى. وهذا التّقديم قوّة لوصيّة السّورة الكريمة الأبناء بأن يبرّوا الآباء. إنّ وعد الله تعالى بالبعث والحساب والجزاء حقٌّ لاريب فيه، فلاينبغي للنّاس أن تخدعنّهم الحياة الدّنيا بزخرفها، أو أن يخدعنّهم الشيطان الرجيم العدوّ لهم الحريص على إضلالهم بأكاذيبه.

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٤

(٢) تفسير الطّبري ٢١/ ٥٥

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

وردت السّنّة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب(١) ومفاتيح الغيب الخمسة هذه استأثر الله تعالى بعلمها، وهي علم وقت قيام السّاعة، ووقت نزول المطر، وعلم مافي الأرحام من نوع الجنين وصورته ولونه وما إلى ذلك، وعلم مايكسب الإنسان مستقبلاً، وعلم الأرض الّتي يموت فيها الإنسان، ويرتبط بالمكان الزّمان. إنّ الله تعالى العليم الّذي لا يخفى عليه شيء، الخبير ببواطن الأمور كظواهرها، هو وحده الّذي يعلم كلّ ذلك.

وفي الحديث الشّريف المتّفق عليه(٢) المرويّ عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ذكرٌ لأمارات السّاعة. وإليك ماجاء في صحيح مسلم ممّا له علاقة بالسّاعة. عن «عمر بن الخطّاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثّياب شديد سواد الشّعَر، لا يُرَى عليه أثر السّفر ولا يعرفه منّا أحد، حتّى جلس إلى النّبيّ ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفّيه على فخذيه(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٥٥

(٢) فتح الباري ١/ ١١٤ حديث رقم ٥٠ و٨/ ٥١٣ حديث رقم ٤٧٧٧
وصحيح مسلم ١/ ١٥٧

(٣) جاء في بعض روايات الحديث: «ثمّ وضع يده على ركبتي النّبيّ صلّى الله عليه وسلم» فتح الباري ١/ ١١٦ وقال النّوويّ: «معناه أنّ الرّجل الدّاخل وضع كفيه على فخذي نفسه وجلس على هيئة المتعلم. والله أعلم» صحيح مسلم ١/ ١٥٧

قال فأخبرني عن السّاعة. قال: ما المسئول عنها بأعلم من السّائل.
قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: أن تلد الأمةُ ربّتها[1] وأن ترى الحفاة العراة العالة[2] رِعاء[3] الشّاء يتطاولون في البنيان[4].

وبشأن نزول الغيث قد يصيب علماء الأرصاد الجّويّة بإذن الله تعالى الّذي علّم الإنسان ما لم يعلم والّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هداه للقيام بالعمل المنوط به، وقد يخطئون. وما أكثر أخطاء هؤلاء العلماء. وأذكر دليلاً على أخطاء القوم الكثيرة الرّسم المضحك الّذي صوّر عالم الأرصاد الجّويّة معصوب العينين ويأخذ من سلّةٍ أمامه ورقةً من بين الأوراق المكتوب على كلّ واحدة منها إحدى حالات الجوّ المحتملة. إنّ الورقة الّتي تقع يده عليها يأخذها، ويزيل الغشاوة من على عينيه، ويقرأ المكتوب في الورقة كأنّه حصيلة علمه ونتيجة خبرته!

وبشأن علم مافي الأرحام يلاحظ مجيء اسم الموصول «ما» الدّالّ على غير العاقل أساساً. ففي أرحام الإناث مخلوقات لا يعلمها إلاّ الله تعالى إضافةً الى الجنين. لذا ينبغي على الّذين علّمهم الله تعالى شيئاً ممّا في الأرحام أن يتأدّبوا، وأن يشكروا لله تعالى نعمه العظيمة عليهم، وأن يقول الواحد منهم في خضوعٍ وخشوع: ﴿ربّ زدني علماً﴾(٥).

نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، وأن يرزقنا حسن الأدب، إنّه جوادٌ كريم، سميعٌ مجيب..

---

(١) قال الأكثرون من العلماء: هو إخبارٌ عن كثرة السّراري وأولادهنّ فإنّ ولدها من سيّدها بمنزلة سيّدها. الإمام النّووي.

(٢) العالة: الفقراء والعائل الفقير. والعيلة الفقر. الإمام النّووي.

(٣) الرّعاء بكسر الرّاء وبالمدّ. الإمام النّووي.

(٤) صحيح مسلم بشرح النّووي ١/١٥٧و١٥٨

(٥) سورة طه ١١٤

تعقيب

سورة لقمان المكّيّة الكريمة الّتي تُعْنى بترسيخ أسس العقيدة كسائر المكّيّ من القرآن الكريم لها في سبيل تحقيق هذه الغاية المشتركة بعض الخصوصيّات الّتي تؤكّد الحقيقة القائلة بأنّ كلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم أشبه بحديقةٍ غنّاء، وكلّ حديقةٍ لها خصوصيّاتها في أنواع الزّهور والورود والرّياحين والألوان والتنسيق. ووراء ذلك فهناك العناصر المشتركة بين كلّ الحدائق الغنّاء. ونودّ في هذا التّعقيب أن نبيّن في هيئة نقاط معالم هذه السّورة الكريمة، وطرائقها في عرض قضاياها، والمحور الّذي تدور حوله تلك القضايا، ووحدتها العضويّة، وأهمّ خصوصيّاتها. وإليك النّقاط.

١ ـ تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة ﴿الم﴾ وتتحدّث على الفور عن القرآن الكريم، كما تتحدث عن القرآن الكريم على التّراخي. فالقرآن الكريم أحد قضايا السّورة الكريمة. إنّه هديً وشفاءٌ للمؤمنين، وإنّه عميً وشقاءٌ للكافرين. وتتحدّث السّورة الكريمة في صدرها عن نعوت المؤمنين المحسنين الّذين يهتدون بالقرآن الكريم، وعن عيوب الكافرين المستكبرين الّذين يعرضون عن القرآن الكريم، ويؤثرون عليه لهو الحديث الّذي يشترونه بدرهمهم ودينارهم، أو بحبّهم وإيثارهم. إنّ للمؤمنين جنّات النّعيم، وإنّ للكافرين نار الجحيم.

وفي اثناء السّورة الكريمة يعود الحديث إلى المشركين الّذين يجادلون في دين الله تعالى وتوحيده بغير علمٍ ولا هدىً من رسول، ولا كتابٍ منيرٍ موحًى به من ربّ العالمين. وإذا قيل لأولئك المشركين اتّبعوا ما أنزل الله تعالى على رسوله قالوا بل نتّبع ماوجدنا عليه آباءنا من عبادةٍ للأصنام والأوثان. والعجيب في الأمر أنّهم يتّبعونهم ولو كان الشيطان الرّجيم يدعوهم إلى نار الجحيم. وفي مقابل هؤلاء المشركين المعرضين عن القرآن الكريم والرّسول العظيم ﷺ هنالك المؤمنون

المحسنون الّذين أسلمـوا وجوههم إلى الله تعالى واستمـسكوا بعروة الدّين الوُثْقى وهي شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسـول الله واتّبعوا ما أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ من قرآنٍ كريم وسنّةٍ مطهّرة. وتجاه إصرار المشركين على شركهم يكون في الآيتين الكريمتين الثالثة والعـشرين والرّابعة والعشرين تسليةٌ مـباشرةٌ للمصطفى ﷺ. قال تعالى: ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفـره. إلينا مرجعهم فننبّئهم بما عملوا. إنّ الله عليمٌ بذات الصّدور. نمتّعهم قليلاً ثمّ نضطرّهم إلى عذابٍ غليظ﴾ وهكذا لا يستفيد المشركون من القرآن الكريم، أحد موضوعات السّورة الكريمة.

ونستطيع بشـأن موضوع القرآن الكريم في السورة الكريمـة وثواب المهتدين به وعقـاب المعرضين عنه أن نقـول: إنّ الحديث عن القـرآن الكريم يأتي في الآيات الكريمات (١-٩) و(٢٠-٢٤) ومعروفٌ أنّ القرآن الكريم هو معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة وجيشه الأعظم الّذي يجاهد به ﷺ الكافرين جهاداًكبيراً، وسلاحه الأمضى الّذي يقـاتل به المشركين. لقد أصـرّ المشركون على الإعـراض عن القرآن الكريم.

٢ ـ كما أعرض المشركون عن القرآن الكريم أعرضوا عن لفت السّورة الكريمة انتـباههم إلى خلق الله تعـالى وحده لاشـريك له هذا الكون، وتسـخير مـا في السّماوات والأرض لجـنس الإنسان، وإسباغ نعم الله تعـالى الظّاهرة والباطنة على كلّ إنسان.

لقد تحدّثت السّورة الكريمة في هذه المعاني، وقد أصرّ المشركون على شركهم وعلى عبادة الآلهـة العاجزة الّتي لا تخلق ذبابةً واحدة ولو اجـتمعت له، والّتي لا تضرّ ولا تنفع ولا تملك مـوتاً ولا حياةً ولا نشورا. في الآيتيّن الكـريمتين العاشرة والحادية عشرة يُبيّن أنّ الله تعالى خلق السّماوات والأرض بغير عمدٍ نراها، وألقى في الأرض جبالاً شـامخات راسخـاتٍ لئلاّ تتحرّك الأرض وتضطرب بما عـليها، ونشر فيهـا من كلّ دابّةٍ تدبّ عليها في البرّ والبحر، وأنزل من السّـماء ماءً فأنبت فيها من كلّ صنفٍ حـسن. كلّ هذا خَلْقُ الله تعالى وحده لا شريك له. ومع أنّ